النظرة القرآنية للمعالم

الأثرية العمرانية

أ.د.سليمة كاظم حسين
م.م.شاكر عويد نفاوة
جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الملخص :

يحاول البحث أن يسلط الضوء عن أهمية الاثار العمرانية والنظرة الإيجابية لها من خلال الآيات القرانية وتوضيح مكانتها التي تنوعت لأكثر من مجال ، فتارة أحتوت نظرته على مدح وثناء وأشادة وتارة أخرى جعلها القرآن كأداة واضحة للتفكر والتعقل بها ، فضلاً عن كونه جعلها وسيلة مهمة من خلال بقاءها وضرورة الأهتمام بها لتكون محل لسكن الإنسان ، فهي واجهة حقيقية لأخذ العبرة والموعظة منها ، ومن هنا جاءت نظرة القرآن الكريم لها ، على أنها نظرة إيجابية من خلال التوظيف الذي وظفت بها ، خلافاً لما ينظر لها بأنها ذات نظرة سلبية .

الكلمات المفتاحية : النظرة،القرآنية،المعالم الأثرية.

The Qura'nic View of Architectural Monuments

Asst. Lect. Shakir Owaid Nefawa Prof. Dr. Salima Kadhem Hussein
University of Basra/College of Education for Human Sciences
Department of History

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
Journal of Basra Research for Human Sciences

Abstract

This research tries to shed lights on the importance of architectural monuments and the positive view towards them through the verses of the Qura'n. It aims also to explain their status which had varied for different more than one field. Once, the Qura'nic view praises them as obvious tools for thinking. In addition the Qura'n pronounced them important means as they last that long and the importance of taking care of them to be a dwelling place for the man. They are real platforms where lessons can be taken from. From here, the positive Qura'nic view stems.

Key Words: View, Quranic, archeolgical

المقدمة :

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم هو الكتاب الشامل لكل مظاهر الحياة ، فهو قد بين في آياته المباركة تفاصيل الكون وما يحويه من مفاهيم لكل العصور والأزمنة ، فكل واردة قد ذُكرت في الكتاب المبارك ، ومصداق ذلك في قوله تعالى : " **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** " (١) ، وقال تعالى في موضع آخر : " **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** " (٢) فضلاً عن ما ذكره الرسول الأمين (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الشأن وبألفاظ وعبارات مختلفة تدلل على كيفية أحتواء القرآن لكل صغيرة وكبيرة إذ ورد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): " **فيه خبر السماء وخبر الأرض ، وخبر ما كان ، وخبر ما هو كائن ...** " (٣) .

ومن بين ما صرح به القرآن الكريم هو الآثار العمرانية وأنواعها ، فقد أفصح لنا عن تلك الآثار في الكثير من الآيات القرآنية فعلى سبيل المثال قوله تعالى : " **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ** "(٤) " فضلاً عن قوله تعالى : " **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** " (٥) .

فهذه الآيات المباركة وبفكر واضح ودراية إلهية واضحة تبين لنا أحداثيات كلمة آثار بمنطلق فكري محسوس بعيداً عن كونه شيئاً ملموس ذات جوانب محددة ، بمعنى أنها بينت لنا على أن هناك آثاراً عمرانية للأمم والحضارات القديمة . وإن كانت من دون أي أشارة لأنواعها ، لكنها آيات تدلل على أن الأمم القديمة خلّفت تراثاً حضارياً من خلال وجود جملة من المعالم العمرانية التي توضحت في آيات أخرى من القرآن الكريم .

المبحث الأول : الآثار العمرانية أداة للتفكر والتعقل

لا شك أنَّ القرآن الكريم لم يُفرّط في ذكر كل ما له من دلالة وعلاقة بحياة الإنسان ونشأته ، لذا جاءت الآيات القرآنية لتُعرّف بحركة البشرية وتطورها من الناحية العمرانية وهي واضحة وجلية ولا غبار عليها .

إلاّ أنَّ ما يمكن ملاحظته من إجمال في الآيات القرانية عند ذكر تطور نشأة الإنسان قد يدفع البعض إلى القول أنَّ كل ما ذُكِرَ عن آثار وعمران البشرية السابقة ما هو إلاّ عرض يوحي إلى سلبية الموقف منها ، فهي نتاج لأقوام أُرْبِكَتْ جوانب العقيدة عندهم ، فكانت تلك الآثار دلالة على ذلك الإرباك ، وأنَّ بقاءها ما هو إلاّ قصد أراد الله تعالى منه التنبيه والتحذير لكل من يتعبد بها أو يتخذها رمزاً لعقيدته.

وانطلاقاً مما نلاحظه في أيامنا المعاصرة من هيمنة واضحة لتلك الأفكار ، نحاول في هذا البحث التعرض إلى حقيقة الهدف والغاية ومدى طبيعة النظرة الإلهية لتلك الآثار . فهل هي نظرة سلبية تتماشى مع ما طرحه البعض من أفكار حول سلبية الآثار العمرانية على أساس أنّها مخلفات لأقوام قد أشركت بالله تعالى ؟ أم أنها خلاف ذلك ؟ .

مما لا ريب فيه أنَّ للطرح القرآني دوراً بارزاً في توضيح كل معالم الكون وتفاصيل حياة البشرية ، فضلاً عن كونه دعا في أكثر من مناسبة إلى التفكر والتعقل بآياته الكريمة، للوصول إلى حقائق الخلق وما وصلت إليه تلك الأمم والحضارات القديمة من الرقي العمراني وصنعهم لحضارات ذات تراث عظيم ومستوى عالٍ من التطور والتحضر ، أي أنَّ التفكر بما تركه السابقون من آثار عمرانية والحث عليه هو رؤية الجوانب المهمة من حيث وجود كل ما مكّن الأقوام السالفة من مقومات كثيرة وذات مميزات أكبر من قوة ومال وبأس فضلاً عن عمارة الأرض وبناء القصور ، بمعنى أنَّ الله تعالى أعطى لهم القدرة لمزاولة أعمالهم للوصول أشبه ما تكون بالحياة الخالدة ، وكأنها كانت كاملة ، إلا أن الله تعالى ضيّق بهم الأرض وعذّبهم وجعل منهم ومن آثارهم كبقايا أعمدة تلوح بثباتها لمن يراها وكأنّها لم تكن من قبل ذات شأن ومكانة كبيرة كأثر لأفعالهم وكفرانهم بالنعم .

فتفكر الأقوام التي تلت الأقوام السابقة بقابلية آثارهم العظيمة وما آل الزمان عليها محل تفكر وتدبر ورجوع بالإنسان إلى عدم طغيانه ، لأنّه لم يملك شيئاً بالمقارنة بما كان عليه السابقون . قال تعالى " **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** " (٦)(٧) .

ودعوة الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى السير في الأرض والتفكر في نهاية تلك الأقوام ثم أخذ العبرة منها وعدم تكرار ما نهج عليه السابقون ، هو لكي يجعلوا من تفكيرهم وتدبرهم أثراً لبلوغ صلح أنفسهم بأعمالهم قبل ظلم أنفسهم ، ليكونوا على ما فعلوا من تكذيبهم للرسل والانبياء وطغيانهم في الأرض نادمين .

ولكن هذا الأمر وتحقيقه لم يكن إلا عن طريق توظيف تلك الآثار العمرانية التي خلفتها الأمم السابقة ، أي إنَّ وجودها في القرآن وتوظيفها بهذا الشكل يُعدّان أمرين إيجابين للوصول إلى الغاية المبتغاة منها .

وردت آيات قرآنية عدّة ذات مضامين إيجابية تعكس صورتها الحية لجعل الناس في حالة من التفكر بما جاء به القرآن الكريم من آيات لبيان حال ما كانت عليه تلك الأمم وما وصلت إليه من التطور والحضارة ، فضلاً عن ذلك كونها تحمل جملة من التصورات العقلية حول حقيقة ما أُنشِئَ من آثار عمرانية وهي تُنبِئ عن كونها أداة ووسيلة لإعطاء صورة واضحة عما وصلت إليه تلك الأمم من العمارة على الرغم من سوء عاقبتهم ، خصوصاً في تكذيبهم لأنبياء عصرهم . فعندما يقول الله تعالى : " **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي**

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٣(ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨

الْأَرْضِ " [٨] أراد ممن كذب النبي محمد (صل الله عليه وآله وسلم) ، أنْ يسيروا في الأرض للبحث عن أخبار الأمم الماضية والتعرف على ما بقي من تراثهم الحضاري ، وكيف أنَّ الله تعالى عذبهم وأبقى هذا الأثر الذي يدلل على ما كانت عليه تلك الأمم من البناء والعمران ، ليحصلوا نتيجة لذلك على أخذ العبرة والموعظة مما خلفته تلك الأقوام وما لاقوه من العذاب والهلاك بسبب مخالفتهم للحق الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام .

وبما إنَّ أهل مكة كانوا أصحاب تجارة وسفر مستمر ، خاطبهم الله تعالى بذلك ، لأنّهم في تواصل مستمر مع مدن الشام واليمن والعراق[٩] وهي مصدر ذلك الإرث الحضاري ، وتواجد تلك الأمم من عاد وثمود وقوم لوط ، الذين عذبهم الله سبحانه تعالى وأبقى آثارهم العمرانية ليعتبروا منهم عن طريق ما خلفوه من تلك المعالم العمرانية التي بقيت ؛ والدليل على ذلك أنَّ قضية السير في الأرض قد تكررت في أكثر من آية لتُبيّن لنا أنَّ هناك غاية وحجة ملزمة أرادها الله تعالى أنْ تكون على كل من خالف وكذب الأنبياء عليهم السلام . بل إنّنا نجد هناك تأكيداً من الله سبحانه وتعالى لعملية **السير في الأرض** لما له من أهمية في عملية التفكر والبحث عن دقائق الأمور ، إذ أوحى الله تعالى إلى النبي موسى عليه السلام " **أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح في الأرض ثم أطلب الآثار والعبر حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا** " [١٠].

هذه الرواية تعكس لنا جملة من المفاهيم ، فهي تعطي دلالة واضحة على مدى الأهمية التي جاءت بها ، كونها تبين لنا : أنَّ السير في الأرض لم يقتصر على من كذب الرسل والأنبياء فحسب ، بل أنّه شمل نبياً من أنبياء الله تعالى ، على الرغم من كونه لم يكن بحاجة للسير والبحث عن أخبار الماضين .

يبدو أن هذه الرواية أنّها جاءت للتأكيد على عملية السير في الأرض لمن يأتي بعد النبي موسى عليه السلام ، إذ نجد حالة الأمم والأقوام مع أنبيائهم اقتصرت على تكذيبهم من جهة وعلى طغيانهم المستمر في الأرض من جهة أخرى ، لهذه الأسباب جاء الحث الإلهي على شمول الأنبياء بعملية السير في الأرض لتكون حجة على كل من كذب الرسل والأنبياء .

فضلاً عن ذلك أنّها تدلل على استمرارية الحث والبحث عن أخبار الأمم المكذبة للرسل وما تركوه من آثار عمرانية لأخذ العبرة والموعظة منها، التي قد تكون ذات أثر ينعكس على عقل المتفكر ليصل إلى الحكمة الإلهية من بقاء تلك الآثار وكيفية هلاك تلك الأمم والأقوام السالفة .

هذا الأمر ما هو إلاّ مصداق لما ورد عن قول الإمام الصادق عليه السلام حينما سأله الحسن الصيقل[١١] عن التفكر وما يحتويه من مفهوم **قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ؟ قال : نعم ، قال رسول الله** (صلى الله عليه وآله وسلم) **: تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، قلت : كيف يتفكر ؟ قال يمر بالدار والخربة ، فيقول : أين بانوك ؟ أين ساكنوك ؟ ما لك لا تتكلمين** [١٢] .

يبدو أنَّ السير في الأرض والنظر في أخبار الماضين هو حصيلة لفكر أراد الله تعالى أن يحققه الناس ، كونه الغاية التي من خلالها يصل الإنسان إلى المعرفة الحقيقية بالله سبحانه وتعالى ، لذا أوصى

الله تعالى وأمر عباده بالسير في الأرض ، وكما أسلفنا في أعلاه كيف أوحى الله تعالى إلى النبي موسى عليه السلام بالسير والحث على التفكر بأخبار الأمم السالفة .

ولأهمية هذا الأمر اتخذه الإمام علي عليه السلام وسيلةً لغرض تفهيمها وتعليمها لابنه الإمام الحسن عليه السلام ، لكي تتحقق إرادة ورغبة الله تعالى بأخذ العبرة منها ، وهي تطبيق حرفي لما ورد في القرآن من حث الناس للتفكر ، ففي وصيته لأبنه الحسن عليهما السلام قال :"... **أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ ، وقَوِّهِ بِالْيَقِينِ ونَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ ، وذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ ، وبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ، وحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي والأَيَّامِ ، واعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ ، وسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وآثَارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وعَمَّا انْتَقَلُوا وأَيْنَ حَلُّوا ونَزَلُوا ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ ، وحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ ، وكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ولَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ...** " [١٣] .

وإنَّ القصد من إحياء القلب بالموعظة هو استخدام العقل في التفكر بأمور الكون ومعالم الخلق ، وما ورد من أخبار الماضين والدليل على ذلك قوله تعالى : " **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** " [١٤]، إذْ أشار البعض إلى بيان قوله تعالى والتعريف بمعنى القلب الوارد بهذه الآية أنَّ القلب هو العقل الذي أشارت له الآية المباركة فقد ورد عن الشيخ الطوسي قوله : " إنه لما أخبر الله تعالى عن إهلاك الأمم الماضية جزاءً على كفرهم ومعاصيهم ، نبّه الذين يرتابون بذلك ، فقال " **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** " إذا شاهدوا آثار ما أخبرنا به ، وسمعوا صحة ما ذكرناه عمن أخبرهم بصحته من الذين عرفوا أخبار الماضين ، وفيها دلالة على أنَّ العقل هو العلم ، لأنَّ معنى (يعقلون بها) يعلمون بها مدلول ما يرون من العبرة ، وفيها دلالة على أنَّ القلب محل العقل والعلوم ، لأنه تعالى وصفها بأنّها هي التي تذهب عن إدراك الحق ، فلولا أنَّ التبيين يصح أنْ يحصل فيها لما وصفها بأنّها تعمى ... " [١٥] .

وفي إكمال لوصيته لابنه الحسن عليهما السلام أشار إلى ما يُبيّن معنى السير في الأرض والنظر في أخبار الأمم السالفة وبعبارات أكثر دقة وأكثر شمولية في توضيح ذلك مركزاً بشكل أكثر على السير في الأرض والبحث عن أخبار الماضين عن طريق آثارهم سواءً المادية منها أم المعنوية للوصول إلى حقيقة الفهم الذي أشار له القرآن الكريم بالتفكر في آثار الأمم الباقية فقال : " **أَيْ بُنَيَّ إِنِّي وإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي ، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، وسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ ، قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ونَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَه وتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَه وصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَه** " [١٦].

هذه الوصية توحي وتدلل على جملة من الأمور أبرزها :

١-تبين مدى الاهتمام بالآثار والسير في الأرض تطبيقاً لأمر الله تعالى من خلال الحث على التدبر

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد (٣/ب) - المجلد ٤٣ - السنة ٢٠١٨

والتفكر بتلك الآثار العمرانية للأمم السالفة . مما يجعلها في جملة ما استحصله الإمام عليه السلام من العلوم فضلاً عن علومه التي أخذها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

٢–على الرغم من أنَّ أهل البيت عليهم السلام كانت عندهم علوم السموات والأرض إلاّ أنّهم لم يستثنوا هذا الأمر لأخذ العبرة منه فضلاً عن الاستزادة العلمية مما تركته الأقوام السابقة والتفكر بآثارهم فضلاً عن تطبيقهم لما أراده الله تعالى في الحث على عملية التفكر والسير في الأرض .

٣– جعل الإمام علي عليه السلام أحوال الأمم السالفة أداة للتفكر وأخذ العبرة منها ، وهي عبارة عن بيان لدستوره الذي طبقه خلال حكمه وخلافته في الأرض ، ليتوضح للناس أهمية هذا الجانب وجعله أمام منظارهم ليسيروا بما سار عليه مطبقاً لتعاليم القرآن الكريم وما جاء به من أخبار وتعاليم .

أشار أحد الباحثين إلى أمور عدّة حول ما توحيه وما تدلل عليه هذه الوصية من مضامين ومنها :

١– دراسة التجارب والأعمال والأحداث الماضية دراسة موضوعية .

٢– التعقل بالروايات والأخبار وعرضها على الفكر لأنّه ينبغي أنْ تتناسب مع الصورة العلمية والثقافية والتاريخية والشرعية والتغيرات الزمنية .

٣–الاطلاع على آثار الماضين بنوعيها المعنوية والمادية ، وهذا السير التي ذكرها الإمام علي عليه السلام يتلاءَم مع المفهوم المادي للأثر ، أي الشاخص الأثري الموجود والذي ينطق بحضارة القدماء ، وإنَّ هذا لا يمنع أنْ يكون كلام الإمام عليه السلام معنوياً فيكون السير في آثارهم هو الاطلاع الدقيق على ما تركوه من آثار وتجارب [١٧] .

وردت العديد من الآيات القرآنية للتأكيد على أهمية التفكر والتعقل بآثار الأمم السابقة وما خلفته من معالم وبقايا مادية . قال تعالى : " **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** " [١٨][١٩].

هذه الآية ما هي إلا دليل واضح لكونها أداة للتفكر بما كانت عليه الأمم التي سبقت عصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذْ إنَّ قومه كانوا أسوة وباقي الأمم المكذبة لأنبيائهم ، فأراد الله تعالى من خلال آثار تلك الأمم أن يتفكروا بما حلّ بهم من عذاب ودمار كونهم خالفوا أنبياءَهم ، لذا جاء التركيز القرآني على مخلفات الأمم السالفة التي بقيت لتكون عظه لهم ، وهذا الأمر بالتأكيد لا يتم إلا عن طريق السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين قبلهم وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بالكثير من آياته المباركة [٢٠].

إذن الغاية من السير في الأرض والنظر في أحوال الماضيين والتأكيد عليه من الله تعالى في آياته المباركة تتمثل بجملة من الأمور والمفاهيم أبرزها :

١ – يريد الله تعالى من خلال تلك البقايا الأثرية أنْ يعلموا أنَّ القدرة الإلهية لا يمكن أنْ تخضع أمام كل من يحاول الوقوف ضد الحق الذي أنزله الله تعالى ، قال تعالى : " **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** " [٢١]. قال تعالى : " **وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي**

السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " [٢٢] بأعتبارهم خالفوا وعصوا أنبيائهم فعذبهم الله وأبقى آثارهم لتكون شاهداً على ما قاموا به .

٢-يريد الله تعالى أنْ يوضح ويعطي تصوراً لهؤلاء أنّه لا شيء يعجزه مهما بلغت به الأمم من الرقي ودرجات البناء والفنون المعمارية التي وصلت إلى أوج تطورها في ذلك العصر ، فلم يكن ذلك أقوى وأشد من بأس الله تعالى إذا ما عصوه في طاعته وعبادته التي خُلِقُوا من أجلها .

٣-والأهم من ذلك كله يريد الله سبحانه وتعالى من خلال هذا التوجيه والحث على التفكر بالسابقين ، أنْ لا يكونوا بمعزل عن ذلك العمران والآثار لتلك الأمم ، فالاطلاع عليه وعلى فنونه يمكن أن يزرع في نفس المتفكر مدى القدرة البشرية والإشادة القرآنية بها ، إلاّ أنّها لم تصمد أمام قدرة الله سبحانه وتعالى قال تعالى : " **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ** " [٢٣].

لقد ذُكِرَ في القرآن الكريم مجموعة من الأمثال التي تدعو إلى التفكر من خلال جملة الآيات التي توضح ذلك المعنى ، منها قوله تعالى : " **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** " [٢٤] " **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** " [٢٥][٢٦] .

هذه الأمثال هي في الحقيقة عبارة عن توضيح لمدى القدرة الإلهية في خلق هذا الكون وما يحويه من أسرار ، لذلك جاءت الدعوة من الله تعالى للتفكر في هذا المجال ، على الرغم من أنَّ البعض قد أدرك وعلم غاية الخلق وما يريده الله تعالى عن طريق تفهمه وتفكره وتعقله للأمور حتى أنَّ الله تعالى جعل لما دعا به من تفكر عبارة عن (**آيةً**) لهم لأنّهم تيقنوا وعلموا ما سره الله تعالى في هذا الكون ، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم فعلى سبيل المثال قوله تعالى : " **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**[٢٧] "[٢٨] " **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ** " [٢٩] " **يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** " [٣٠] فضلاً عن قوله تعالى " **خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** " [٣١] ، والدليل على ذلك أن الله تعالى وكما هو واضح جعل لما يدعو له من التفكر بخلقه للكون **آية** ، إلاّ أنَّ هذا الأمر لم يشمل سوى من آمن بالله تعالى ومن كان عالماً بما يكنه الله من أسرار هذا الكون ، **بدليل قوله تعالى** : " **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** " [٣٢] ، وذلك لسبب بسيط جداً ، وهو أنَّ بعض البشر قد عصوا ربهم ولا يريدون التفقه بحقيقة الحكمة الإلهية قال تعالى : " **أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** " [٣٣] فضلاً عن كون عقول البشرية لم تكن بميزان ومستوى واحد من العلم والفهم لإدراك الأمور ، قال تعالى : " **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ** "[٣٤] " **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ** " [٣٥].

إلاّ أنَّ الملاحظ أنَّ الله تعالى قد أتى بالآثار العمرانية للأمم البائدة وجعلها مفردة من مفردات التفكر شأنها شأن بقية الظواهر والأمور التي دعا الله تعالى بها للتفكر واتخذها وسيلة في الوصول إلى حقائق

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ (ب) - المجلد ٤٣ - السنة ٢٠١٨

القدرة الإلهية والتحقق من عظمته ، وإذا نظرنا إلى أهمية الأمثال التي دعا الله تعالى الناس من خلالها إلى التفكر وما أتى به من ذِكر أمثال التفكر لوجدنا أنَّ الله تعالى أعطى بُعداً واضحاً من خلال تلك الآثار العمرانية لمعرفته وبيان قدرته مما يجعل الآثار العمرانية في بوتقة واحدة مع الآيات العظيمة التي دعت الناس للتفكر بها والتفقه من خلالها بما يريده الله تعالى .

مما تجدر الإشارة إليه أنَّ التفكر بآثار الأمم السابقة هو أكثر أهمية من غيرها من آيات التفكر التي ذُكِرتْ بالقرآن ، والدليل على ذلك أنَّ الله تعالى دعا الناس إلى السير في الأرض للنظر ومعرفة تلك الأقوام وبيان حقيقتها ، وهذا الأمر لم يشر له في بقية الآيات ، نعم لكونها موجودة على أرض الواقع لكنها شكلت عنصراً مهماً لذلك الأمر ، فالكل ممكن أنْ يتعرف على ما دعا الله تعالى به من التفكر بهذه الآثار لأنّها أمر محسوس ، غير أنَّ آيات التفكر في خلق السموات والأرض وخلق الكون بصورة عامة لا يمكن الوصول إليها بسهولة ، فالبعض يدرك ويفهم ، والبعض الآخر لا يمكن أنْ يتوصل لتلك الحقيقة ، لأنَّ الناس ليس بميزان واحد من الإدراك والفهم . فضلاً عن ذلك أشار أحد المفسرين إلى أن المكان هو أقرب إلى العقول والأفكار [٣٦] . بمعنى أنَّ التفكر بالآثار والخوض بها أفضل من التفكر بالأمور التي لا يدركها العقل لكونها غير محسوسة خلافاً للآثار العمرانية التي تكون أمام أنظار المتفكر .

ولهذا يمكن أنْ تكون الآثار العمرانية والتفكر بها أهم من غيرها من آيات التفكر ، بدليل أنَّ الله تعالى يستطيع أنْ يُلقى الحجة على المتفكر بها كونها من المحسوسات **وثانياً** كونه دعا إلى السير في التفكر بها والنظر في ما خلفته من حقائق دللت على حقيقة تلك الأقوام وكيفية القدرة الإلهية التي أوصلتهم إلى هذا الحال الذي هم عليه ، فبيوتهم خاوية ولم يكن لهم أثر سوى مخلفاتهم المادية ، هذا جانب.

والجانب الآخر إنّنا نجد أنَّ الآثار العمرانية والتفكر بها تارةً تكون أكثر أهمية لكونها كما ذكرنا أثراً مادياً محسوساً وملموساً عند المخاطب ، فضلاً عن كونهم قد تناقلوا أخبار تلك الأقوام تناقلاً شفاهياً جيلاً عن جيل ، مما يجعل التأثر والتصديق بها أكثر من أمور التفكر التي دعا الله تعالى لها في أغلب آياته وكأنما هو مثل من واقع البيئة المعاش بها ، فقوله سيروا في الأرض للدلالة على البحث عنها في بيئة تلك الأقوام والتعرف عليها وعلى حقيقتها والتمعن بالكيفية التي أوصلتهم إلى هذا الحال الذي هم عليه .

من خلال هذا الطرح يمكن أنْ نصل إلى نتيجة وهي أنَّ العنصر الإيجابي يبدو واضحاً وجلياً في آيات الله تعالى التي شملت آثار الأمم السالفة وكيفية التفكر بها ، فكونها أداة للتفكر ما هو إلا توظيف من الله سبحانه وتعالى لتلك الآثار العمرانية للأقوام السالفة ، فلها من الأهمية والإشادة القرآنية على الرغم من كون أهلها قد كفروا بالله تعالى وعصوا أنبياءه إلاّ أنَّ ذلك لم يثنِ عن ذكرها في القرآن وتوظيفها للغاية التي يريدها الله تعالى من كل إنسان وهو التفكر بما ورد من آيات قرآنية تحمل في طياتها تلك الآثار لأخذ العبرة والموعظة عن طريقها من جهه .

ومن جهة أخرى أنَّ الآثار العمرانية الخاصة بالأمم البائدة ، إنَّما وُجِدَت بالقرآن الكريم ليتفكر بها الإنسان الذي يلي تلك الأقوام ، وهو نتيجة حتمية كون الله سبحانه وتعالى قد أمر عامة الناس ممن كذب الرسل أنْ يتفكروا بها ومعرفة ما لهذه الآيات من تدبّر فعلي قائم على أخذ الكناية عن أصل نسبَها للأقوام

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ (ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨

السالفة .

يبدو أنَّ الله تعالى أراد من ذكر هذه الآثار في القرآن الكريم والتفكر بها أنْ يعرف الإنسان من خلالها ما كانت تعتنقه تلك الأقوام من ديانات والتعريف بعبادتها السلبية ، لكونها أقواماً قد كفرت وطغت بالله سبحانه تعالى ، ومن ثَمَّ يمكن أنْ تنحصر الفائدة من ورائها بعدم السير حذوها ، وحينها سيكون الإنسان قد بنى نفسه على خلاف ما كانت عليه تلك الاقوام من سلبيات . بمعنى إيجابية هذه الآثار أنَّها خلقت تفكيراً ذاتياً بين الإنسان ونفسه والمحاولة في أخذ العظة من خلال السير في الأرض ، بمعنى النصح والإشادة لنفسه على وجه الخصوص ، وبذلك تعددت إيجابيات ذكر الآثار العمرانية وما لها من أهمية خاصة تنأى عنها الكثير من السلبيات وجعلها تكون بدائرة الفائدة العامة والخاصة التي تعود على الفرد نفسة وعلى المجتمع الذي يعيش فيه .

باختصار لولا وجود آثار الأمم البائدة لما تمكن الإنسان من الوصول إلى حقيقة ما كانت عليه من أحوال ، فمجرد وجودها له دلالة على أهميتها ، فضلا عن ما أخذته من الإشادة والتعظيم لها بالذكر من الله تعالى في أغلب آياته ، فأنَّ الله تعالى لم يتعامل مع آثار تلك الأمم كما تعامل معها البعض ، ويرميها بالشركية كونها تابعة لأقوام أشركت بالله تعالى ، بل بالعكس القرآن يحدثنا عنها وبكل طلاقة مبيناً أهميتها وأثرها كونها معالم عمرانية أنتجت حضارات عظيمة أخذت أثرها مما تركته تلك الأقوام ، فالله تعالى فرّق بين كونها معالم عمرانية تابعة لأقوام شركية ، وبين كونها معالم عمرانية أنتجت حضارة أسوة بباقي الحضارات ذات فائدة تعود على من قام ببنائها وعلى من خلّفهم في ذلك .

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ المفسرين أشاروا إلى أنَّ كل ذكر لعملية السير في الأرض والتفكر في أخبار الماضين هو خاص بأصحاب الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن ثَمَّ فتفسير الآيات القرآنية الخاصة بذلك تختص بمرحلة ما قبل الإسلام ، أي إنَّ كل سير في الأرض اختص بالبحث عن آثار الأمم المكذبة لأنبيائهم ولم يشمل ما ورد بعصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فالقرآن طالما اختص نزوله بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فالمفسرين ألغوا أي أثر لعصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما كان به وما سيكون ، وكأنما القرآن خاص بمرحلة من المراحل فقط علماً أنّه كتاب عام لكل الدهور والأزمان .

ومن ثَمَّ ألم يكن عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يشمل كثيراً من المكذبين والمجرمين والمشركين الذين أشارت لهم الآيات القرآنية ؟ ألم تُكذَّب رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ممن عاصره في عهده من المشركين ؟ يعني ما نريد قوله ألم تنطبق آيات السير في الأرض لفترة عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أساس أنَّهم **كذبوا وأجرموا وأشركوا** ، ومن ثَمَّ سيكون التوضيح عن هكذا صفات من خلال الآيات القرآنية .

من الواضح أنَّ الله تعالى لم يقتصر السير في الأرض على قوم النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) للنظر والتفكر بما حلّ بالأقوام التي سبقتهم فحسب ، بل يبدو أنَّ قضية التفكر والسير في الأرض أخذت مضامين عدّة وُظِّفَتْ في القرآن الكريم للناس كافة ، ولكل من يحاول تكذيب الأنبياء عليهم السلام ، يعني يمكن أنْ توَظَّف هذه الآيات حتى لمن يأتي بعد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقوم بتكذيبه ، لأنَّ

القرآن الكريم وكما هو واضح دستور عالمي ولكل الأمم والعصور ، ولم يكن ليقتصر على عصر الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بل يمكن أنْ تنطبق تعاليمه وضوابطه على كل البشرية ، كونه مرتبطاً بالدين القويم وهو الإسلام وهو خاتم الأديان في الأرض قال تعالى : " **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ** " (٣٧) .

فضلا عن قوله تعالى : " **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** " (٣٨)

ومن ثم خلال هذا الطرح لا يمكن أنْ يكون السير في الأرض قد اختص بقوم النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فقط لتكذيبهم إيّاه ، وكما أوضحنا أنَّ الآيات القرآنية نزلت لتُبيّن لهم كيفيّة عاقبة الذين من قبلهم ، وتارة أخرى ينبغي أن يكون التركيز لما بعد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن يكذبه بماء جاء به من الحق ، فحينها ستكون الآيات القرآنية خير دليل للرد على من كذبه ، وهذا وارد ، والدليل على ذلك نجد اليوم أغلب المجتمعات خصوصاً الغربية منها ، قد كذبت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ورسالته السماوية ، ومن ثَمَّ من حيث الأصح لحل هكذا أمر ، سيكون الرد على هذه المجتمعات بما جاء من آيات قرآنية لتوضح لهم كل صغيرةً وكبيرة ، لذا لا يمكن أنْ يكون التركيز القرآني والخطاب مرتكزاً فقط على من عاصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والحديث عن ما جرى للسابقين وعاقبتهم ، بل يكون حتى في عصرنا الحالي ، فالحث على السير في الأرض والتفكر بآيات الله تعالى وما حل بالسابقين وارد لكل عصر وكل زمان .

وردت كثير من الآيات مركزةً على التفكر والسير في الأرض وهي عامة لكل من كذب الأنبياء ولم تنحصر بعصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن كذبه . فعلى سبيل المثال قوله تعالى : " **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ** " (٣٩) .

فعند التمعن بهذه الآية والتركيز على كلمة السنن الواردة في الآية المباركة ، نجد أنّها لا تنحصر بسنن الأنبياء السابقين ممن سبقوا عصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فقط ، بل هي كل سنّة جاءت من قبل الأنبياء عليهم السلام التي تشمل حتى سنة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لأن المصادر وكتب التفسير أشارت وأكّدت إلى أنَّ مفردة السنن الواردة في الآية هي سنن الأمم السالفة المكذبة لرسلها وأنبيائها وكيف حل العذاب بها (٤٠) .

لا شك أنَّ سنة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تندرج من ضمن سنن الأنبياء عليهم السلام ، وهي سنة الله تعالى التي أشار عليه بتعليم أمته فيها وتوضيحها لهم على نحو ما يرتضيه من الحق دون الباطل . والدليل على ذلك عندما سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير قوله تعالى : ((**سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**)) **قال : عُني بذلك أي انظروا في القرآن فأعلموا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم وما أخبركم عنه** (٤١).

فمن المعروف أنَّ القرآن الكريم لم يكن مكتوباً في عصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يحث

العدد ٣(ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨
مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية

الإمام الصادق عليه السلام في النظر به لمعرفة ما حل بالسابقين وتكذيبهم لأنبيائهم . خصوصاً وأنَّ كتب التفسير أشارت إلى أنَّ الآيات المباركة التي تختص بالتفكر والسير في الأرض قد نزلت في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي مخاطبة لمن كذب النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من مشركي قريش في رسالته .

والذي يبدو أنَّ الإمام الصادق عليه السلام أراد القصد من ذلك هو التفكر في القرآن الكريم والتمعن بآيات الله تعالى ومعرفة بواطنها ، والقصد من القرآن الكريم ، هو القرآن الذي نزل على الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكون النظر والسير في معرفته والتفكر بآياته أولى ، للوصول إلى الهدف والغاية التي يريدها الله تعالى من البشر .

ومن خلال ذلك يمكن أنْ يكون هذا التفسير لمعنى السير في الأرض والحث على التفكر هو شامل لكل العصور بدلالة أنَّ القرآن الكريم هو دستور عالمي لكل الأزمنة . ولو لم يكن كذلك لما كانت هناك حجة من الله تعالى على كل من تلا عصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من الناس كافة.

وما يُعضّد قولنا هذا ، بعض المفسرين أشار إلى تفسير هذه الآية بقوله : **أي أنظروا في القرآن** (٤٢) ، والقرآن كما أسلفنا لم يكن كتاباً كاملاً في عصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى ينظر له المسلمون ويتفكرون بما جاء به من أخبار للأمم السالفة .

أيضاً قوله تعالى : " **قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** " (٤٣) . ما هي إلا دليل كون السير في الأرض لم يختص بمن عاصر الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فحسب للنظر بما حل بالسابقين من الأمم المكذبة ، بل هي شاملة لكل العصور ، فكلمة أنظروا في الآية المباركة هي للنظر في القرآن الكريم لمعرفة ما جرى للأنبياء عليهم السلام وأممهم من أحداث (٤٤) . فضلاً عن **قوله** : "**عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** " فعندما نقرأ القرآن الكريم اليوم نجد أنَّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في عصره كثير من المكذبين ولم يقتصر ذكر المكذبين على من عاصر الأنبياء عليهم السلام من الأمم القديمة .

فضلاً عن ذلك فقد وردت كثير من الآيات القرآنية التي شملت مفردات تدلل على شمول عصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بها ، فقوله تعالى : " **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ** "(٤٥) . فعندما نتمعن بالقرآن نجد أنَّ عصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن كان حوله أكثرهم مشركون ولم يقتصر الشرك على تلك الأمم فقط ، وهذا ما أكده القرآن في قوله تعالى : " **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** " (٤٦)(٤٧).

لذا ما نريد أنْ نصل إليه هو أنَّ القرآن الكريم وما نزلت به من آيات قرآنية هي شاملة لكل العصور سواءً لعصر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والتفكر بما حل بالسابقين لعصره أم لما بعد عصره – أي للمدَّة التي تلت نبوته – حتى تنطبق تعاليمه بما حل بأصحابه وما عملوه وما قاموا به من تكذيب لرسالته أو غير ذلك من الأمور التي دعا الله تعالى بها إلى السير في الأرض والتفكر بالقوم السابقين أسوة بباقي الأمم السابقة ، حتى يكون القرآن الكريم في أتم الكمال الذي ليس فيه أي اختلاف عما نطق به من الحق ، إذ قال الله تعالى في حقه : " **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ**

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ (ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨

اخْتِلاَفًا كَثِيرًا " (٤٨)

المبحث الثاني:الإشادة بالمعطيات العمرانية للأمم السالفة وترسيخ مفاهيمها.

بعد أنْ بينّا كيف شكلت الآثار العمرانية الأهمية الكبيرة من خلال توظيفها أداة للتفكر في الآيات القرآنية ، بوصفها وسيلة مهمة لبيان معالم الأقوام السالفة وما كانت عليه ، نحاول في هذا المبحث أنْ نُبيّن أهمية المعالم العمرانية والآثار المتبقية لتلك الأمم وكيفية الإشادة القرآنية بها من قبل الله سبحانه وتعالى .

لا شك أنَّ أولى توجهات الإنسان منذ البدايات الأولى للحياة كانت تعتمد على ما كان موجوداً في الطبيعة ، التي هي من صنع الله تعالى فقوله تعالى : " **وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** " (٤٩) . ما هي إلاّ دلالة توضح لنا كيفية وجود هذه النعمة الإلهية التي أنعم الله تعالى بها على البشرية كونها موارد طبيعية يستطيع الإنسان من خلالها تسير أموره عن طريقها سواءً بالسكن أم ما تحتويه من موارد أخرى .

والملاحظ على هذه الآية أنّها تعطي تصوراً واضحاً حول حقيقة ما موجود في البيئة وما هيَّأه الله تعالى للإنسان من سكن وما يحتاجه من مقومات لكمال حياته، فالأكنان هي عبارة عن كهوف وُجِدَتْ في الجبال لغرض السكن لم يكن ليتدخل الإنسان في صنعها ، وإنّما هي موجودات طبيعية من ذات الله تعالى وصنعه كما أسلفنا .

غير أنَّ ما أشارت إليه الآية المباركة من كلمة سرابيل التي تعني أنَّ الإنسان بدأ بتطويع ما موجود في البيئة من موارد ، ليصنع منها ملابسه لكونها الأساس الذي يقيه من الظروف المناخية بما يلائمه ويلائم الظرف الذي هو عليه ، فالسرابيل كما ذكرت كتب التفسير هي عبارة عن ملابس تقي الإنسان الحر(٥٠) ، مصنوعة من الكتان والقطن والصوف ، فضلاً عن قيامه بصناعة دروع الحرب من المعادن (الحديد) ، لحمايته من بأس الحروب (٥١)، هذا يعني أنَّه بدأ يستخدم موارد البيئة بكل مجالات الحياة بحسب الحاجة إليها .

أما قوله تعالى : " **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ** " (٥٢)(٥٣) ، فأنّها توضح بما لا يقبل الشك مدى الإشادة بالجهد البشري في تطويع البيئة ، فنحت الجبال لا يمكن أنْ يتم بسهوله لولا استخدام الإنسان للجهد المبذول والمكثف فضلاً عن الفن المستخدم في صناعته بيوت في الجبال ، نعم قد تكون الحاجة هي الأساس في ذلك ، لكنه على الرغم من هذا أستخدم جهده وفنونه بموارد البيئة والطبيعة وجعلها بهذه الهيئة .

ولو تتبعنا لفظة فارهين في الآية المباركة لوجدنا أنَّ تلك الأمم قد نالت من الإشادة والمدح من الله تعالى بما قاموا به وما صنعوه ، والدليل على ذلك أنَّ لفظة فارهين تعني أنهم كانوا حاذقين وماهرين بصنع منشآتهم العمرانية ، فضلاً عن كونها تدلل على الموهبة الكبيرة (٥٤) التي كانت تمتلكها تلك الأمم في استخدام شتى الفنون لتأسيس مساكن وبيوت وغيرها مما تحتاجه في حياتها اليومية ، وهذا بحد ذاته مدح وإشادة من الله تعالى بالجهد العمراني الذي قاموا به . إذْ إنَّ الله تعالى لا يعطي تقيماً دون أنْ يكون

المقابل مستحقاً لذلك التقييم وهذا ما نلتمسه من الآية المباركة في أعلاه.

وقد يجرنا مفهوم الآية إلى معنى آخر ، فكلمة فارهين[٥٥] يمكن أنْ تكون من رفاهية تلك الأمم لأن الله تعالى قد منحهم النعم والخيرات وجعلهم في أفضل حال ، والدليل على ذلك خاطبهم الله تعالى بمفردات عظيمة تدلل على بيان هذه النعم فقوله : " **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** " [٥٦] ، ما هي إلاّ دلالة على تلك النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم والتي تحقق الرفاهية لهم ، أو أنّها جاءت لتدلل على رفاهية المنشآة العمرانية التي قامت ببنائها، ويمكن أنْ نلاحظ هذا الأمر بوضوح في الآية المباركة في سورة الأعراف قال تعالى : " **وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**" [٥٧]. لأنَّ القصور اتخذت منحى آخر وأهم في حياتهم ، فتغيير مسكنهم من حالة إلى حالة أوسع وأكبر يدلل على ما أشرنا له وهو أنّهم اتخذوا الرفاهية في بناء مساكنهم .

بل يبدو أنَّ هذه الآية تسير إلى حقيقة تلك الإشادة التي لم تكن أمراً عرضياً أو طارئاً ، فالقرآن الكريم في هذه الآية يصور لنا حقيقة ومعنى الرفاه ، فلم يكتفِ الإنسان بنحت الجبل مسكناً له ، بل تعداه ليتخذ أبنية وعمارة تلائمه مستوحاة من ذوقه وفكره ورغبته ، فبنى قصوراً له وهي عبارة عن أبنية مرتفعة أكثر رفاهية من بيوتهم وسط الجبال .

وعند النظر لهذه الآية القرآنية نجد أنَّها تعاملت بإيجابية بالغة مع ذلك الأثر العمراني وهو المعنى الأدق للإشادة بمنشآة تلك الأمم وآثارهم ، فإنَّ الله تعالى يعلم أنَّ أصحاب ذلك الجهد المبذول في إنتاج منشآتهم العمرانية هم أقوام كفرت به وأشركت ، إلاّ أنَّ هذا الأمر لم يثنِ عن ذكر جهودهم المبذولة من جهة ومنشآتهم العمرانية من جهة أخرى .

غير أنَّ ما يستوقفنا هنا هو تكرار كلمة **ينحتون** في القرآن الكريم ، فهي قد تكررت في الآيات القرآنية أكثر من ثلاث مرات كلها تدلل على مدى المدح والإشادة [٥٨] ، لأنَّ النحت هو فن من الفنون التي برعت بها تلك الأمم ، والقرآن أشاد بهذا الفن وذكره بأكثر من آية للدلالة على مدى الخبرة المكتسبة في استعمال هذا الفن لبناء بيوتهم ومساكنهم بأنواعها . والتساؤل هنا لماذا أختار الله تعالى هذه الكلمة دون غيرها ؟ وما معناها ؟ وما دلالتها ؟ . وهل كل ما ورد من كلمة ينحتون في القرآن تدلل على معنى الإشادة والمدح كونها فنّاً من الفنون؟ .

يمكن القول أنَّ هذه الكلمة لها من الدلالة والأهمية التي تحتوي مضامين عدّة منها :

١- تحاول هذه المفردة أنْ تعطي إيحاءً واستشعاراً بتحول الإنسان من اعتماده على الطبيعة في السكن إلى اعتماده على جهده في بناء مسكن له أكثر رفاهية.

٢-امتلاك الإنسان للأدوات التي تمكنه من النحت بها ، وخصوصاً نحت الجبال ، إذْ لو لم يكن يمتلكها لما تمكن من الوصول إلى ذلك الطور العمراني ، وهذا يدلل على امتلاكهم لقدرات أخرى في صناعة هذه الأدوات واستخدامها في هذا المجال .

٣- هي إشارة وإشادة واضحة بالجهد البشري إذ ارتبط ذلك النحت بجهد الإنسان نفسه دون غيره ، وهو

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٣ (ب) - المجلد ٤٣ - السنة ٢٠١٨

تمييز لذلك الطور العمراني عمّا حدث في عهد النبي سليمان عليه السلام الذي ارتبط عهده بوجود الجنز

٤- تحفيز للبشرية بضرورة التفكير في ذلك الجهد والابتكار.

ينبغي الإشارة إلى أنَّ مفردة ينحتون جاءت في القرآن الكريم لتدلل على معنيين : **الأول** المدح والإشادة **والثاني** الذم والتوبيخ ، لأن الإنسان استخدم فن النحت لصناعة أصنام تُعبد من دون الله ، قال تعالى : " **أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** " (٥٩)(٦٠)، وفي هذا النوع من النحت لا يمكن أنْ تستحق الإشادة والمدح ، كونه قد خالف ظواهر الكون بالعبادة لغير الله تعالى ، ومن ثَمَّ نلاحظ القرآن الكريم كيف وبّخ هؤلاء القوم لفعلهم وما عملوه ، فقوله تعالى : " **أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** " هو أستفهام على الإنكار والتوبيخ لهم لأنّهم كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم ويعبدونها من دون الله تعالى (٦١) ، أما النوع الأول من النحت فهو قد استحق الإشادة على الرغم من سوء عاقبة قوم ثمود ، والدليل على ذلك أنَّ النحت الذي قاموا به ما هو إلا عبارة عن تهيئة مساكن وبيوت لهم ، تأويهم من الظروف الصعبة ، هذا أمر .

والأمر الآخر كون ما قامت به قوم ثمود من نحت يختلف تماماً عن النحت الذي قام به قوم النبي ابراهيم عليه السلام – أي نحتهم للأصنام التي يعبدونها – ، بمعنى أنَّ النحت على الجبال وعمل بيوت فيها يدلل على الخبرة والتفنن في تغيير هيأة الجبال الى مساكن ، إذا ما علمنا صعوبة النحت على الجبال كونها تتكون من مادة صلبة ولا يمكن استعمالها بسهولة فضلاً عن استخدامهم للآلات التي مكنتهم لذلك العمل مع ما تمر به تلك الأمم من بدائية نشوء الحياة فيها ، ولذلك جاء التركيز القرآني على ذلك بإطلاقه ألفاظاً عدّة على نحتهم بالجبال ، فتارةً يسميهم فارهين أي ماهرين وحاذقين في ذلك ، ومرة أخرى يطلق عليهم آمنين بقوله : " **وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** " (٦٢)(٦٣) ومرة ثالثة صاحب مفردة نحتهم للجبال بتبؤهم في الأرض وخلافتهم فيها. والاستخلاف في الأرض بلا شك هو أمر يدلل على مدى الأهمية الكبيرة للإنسان.

ولكن ما قامت به أمة نبي الله إبراهيم عليه السلام هو عبارة عن نحتهم للأصنام التي لم تحقق لناحتِيهَا سوى الذم والتوبيخ لهم ، لأنَّ عملهم هو بالأصل مخالف لما يريده الله تعالى وما خُلِقَ الكون من أجله وهو العبادة له قال تعالى : " **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** " (٦٤) .

والملاحظ أنَّ الله سبحانه وتعالى عبّر عن هذه الإشادة بمجموعة من التعابير أهمها :

١- استخدام الألفاظ التي تدلل على احترام الجهد الإنساني المبذول في ذلك الأمر ، فقوله تنحتون تدلل على التثقيف للعمل والإنتاج والتنمية بصورها كافة .

٢-الإشادة بالحالة التطورية في حياة الإنسان من خلال تطور عمارته فبينما في الآية السابقة ذكر الله تعالى أنَّ الإنسان قد وجد البيئة جاهزة وصفها بيتاً وسكناً له ، وفي الآية التالية أشار الله تعالى إلى مدى الجهد المبذول في تطويع البيئة وتغيير هيئتها بما يلائم حاجته منها .

٣-لا تكتفي الآية بذكر أنَّ حركة الإنسان في نَحت مسكنه هي حركة ناتجة عن حاجته الضرورية ، بل تشير إلى أنَّ الإنسان قد تجاوز مرحلة الضروري وبدأ يتجه للبعد التكاملي في اختيار مسكنه بحسب ذوقه في ذلك .

مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية العدد ٣٠(ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨

إذن القرآن الكريم أبدى رأيه في تلك الآثار العمرانية من خلال الإشادة بما بنوه من آثار بمختلف أنواعها سواءً القصور منها أم المدن أم غيرها ، وهذا دلالة على أنَّ القرآن خصَّ جانباً من التمييز نسبةُ لهؤلاء الأقوام ، لما قاموا به من بناء مدن أو تكوينهم لحضارات متميزة ، حتى وصلوا بتفكيرهم وفنونهم أنْ تكون محل إشادة وثناء وفكر عالٍ ، على أنْ تكون هذه الإشادة محل تطلع للأقوام التي تأتي بعدها ، وتكون ذات استفهام لهم من حيث التفكر أو التعظيم لما وجدوه من الأقوام السابقة .

وقد وصلت الإشادة القرآنية في آثار وحضارات الأمم القديمة إلى أعلى مستوياتها عند التعرض إلى مدينة إرم فقوله تعالى : " **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** " [٦٥] ، ما هو إلاّ إشادة واضحة بما كانت عليه تلك المدينة العظيمة التي لم تصل لها أيّة مدينة على مستوى التطور العمراني في ذلك الوقت ، فلو تتبعنا كيفية بناء تلك المدينة والفنون التي أُسْتُخْدِمَتْ في جعلها بهذه الهيأة التي استحقت الذكر بالقرآن الكريم ووصفها بأدق وصف يدلل على عظمتها ، وهو بحد ذاته أشادة بالجهد المبذول من قوم عاد ، لوجدنا أنَّها دلالة واضحة على مدى الإشادة بذلك التطور العمراني الملحوظ ، طالما كانت المصادر وكتب التفسير قد أشارت إلى تفاصيل أكثر عن كيفية بنائها وما كان فيها من بناء يدلل على مدى التطور العمراني ، فقد رُوِيَ عن أبي وائل [٦٦] قال : " إنَّ رجُلاً يُقال له : عبد الله بن قلابة [٦٧] خرج في طلب إبل له قد شردت فبينا هو في صحاري عدن في تلك الفلوات إذ هو وقع على مدينة عليها حصن حول ذلك الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال ، فلما دنا منها ظن أنَّ فيها من يسأله عن إبله فلم يرَ داخلاً ولا خارجاً ، فنزل عن ناقته وعقلها وسل سيفه ودخل من باب الحصن ، فإذا هو ببابين عظيمين لم يرَ في الدنيا بناء اعظم منهما ولا أطول ، وإذا خشبها من أطيب عود وعليها نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ، ضوؤها قد ملأ المكان ، فلما رأى ذلك أعجبه ففتح أحد البابين ودخل فإذا هو بمدينة لم يرَ الراؤون مثلها قط ، وإذا هو بقصور ، كل قصر منها معلق تحته أعمدة من زبرجد وياقوت ، وفوق كل قصر منها غرف ، وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وعلى كل باب من أبواب تلك القصور مصاريع مثل مصاريع باب المدينة من عود طيب ، قد نضدت عليه اليواقيت ، وقد فُرِشَتْ تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فلما رأى ذلك أعجبه ولم يرَ هناك أحداً فأفزعه ذلك . ثم نظر إلى الأزقة فإذا في كل زقاق منها أشجار قد أثمرت ، تحتها أنهار تجري ، فقال : هذه الجنة التي وصف الله عز وجل لعباده في الدنيا والحمد لله الذي أدخلني الجنة ، فحمل من لؤلؤها ومن بنادق المسك والزعفران ولم يستطع أنْ يقلع من زبرجدها ومن ياقوتها لأنه كان مثبتاً في أبوابها وجدرانها ، وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثوراً بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف كلها ، فأخذ منها ما أراد وخرج حتى أتى ناقته وركبها ، ثم سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليمن وأظهر ما كان معه وأعلم الناس أمره " [٦٨] .

على الرغم من أنَّ هذه الرواية وضحت معالم ما كانت تحتويه مدينة إرم من بقايا أثرية وكيفية بنائها بهذه العظمة ، إلاّ أنّنا في محل الشك بها ، ومع هذا فقد بيّنت (إذا تم التسليم بها) ما كانت عليه تلك المدينة من بقايا أثرية لها من العظمة الشيء الكبير ، استحقت الذكر والإشادة بها ، وهو الأمر الذي لا

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ (ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨

يتناقض مع الطرح القرآني عنها ، إلاّ أنّه يصطدم بزمن الرواية والراوي .

ويمكن القول أنَّ القرآن الكريم قد تدخل بذكر هذه الأثار العمرانية العظيمة فضلاً عن إشادته بعظمة بنائها ، فقد كانت محل إشادة وثناء عليها ، ومن ثَمَّ أعطى القرآن مدلوله الفكري بذكره للآيات وطلب من الناس التفكر بها ، فأحاط هذه الآثار بدائرة المدح لما بُنِيَتْ به هذه الآثار أو فن التفكر العظيم الذي أظهروه من خلال نشأتها ، على الرغم من أنَّهم يختلفون عقائدياً مع ما نزلت به الأنبياء عليهم السلام ، لكن القوة البديهية التي امتلكوها بنصب جهدهم الفكري والجسدي في بناء هكذا آثار ، جعل القرآن يحث عليها ويشيد بها.

من الواضح وكما أشرنا له مسبقاً أنَّ الذكر الموثق بالآيات القرآنية والدلائل الواضحة ما هو إلاّ اثبات ديني موثق على بلوغ الرقي لما أراده الله تعالى لتبيين عظمة ذلك البناء .

ولكن على الرغم من الإشادة القرآنية بهذه الآثار العمرانية وكيفية بنائها إلاّ أنّها لا تنبثق من كونها ناتجة من فكر ديني صحيح أو أنّه ديني مُنحرف عن الصراط القويم الذي أمر الله تعالى به عباده ، فذكرها الله تعالى ووظفها بحسب مكانها الطبيعي الذي يتناسب مع ذلك العمل ، ولا يمكن أنْ نأخذها على أنها ذات أتجاه سلبي ، بل ينبغي أنْ تكون ذات اتجاه إيجابي ، لأن الله تعالى أشاد بعظمة ذلك البناء ، فضلاً عن استخدام فكرهم وفنونهم لتكوين هكذا منشآت عمرانية ، تركت آثاراً من خلال بلوغ العظة للأقوام التي أتت بعدها بأنْ يتفكروا بها على وجه الخصوص حتى لو كانت هذه الآثار ذات نتاج ديني منحرف عن عبادة الله تعالى .

فبلوغ الرقي بالذكر والإشادة بهكذا بناء أعطى نتاج التمعن الصحيح بتلك الآثار على الرغم من أنّها بقايا لأقوام أشركت بالله تعالى ، وهو دلالة على أنَّ الله يشيد بعظمة عباده وفنّهم وعطائم حتى لو كانوا على خلاف ما يريده من الخلق وهو صدق العبادة .

ومن ثم يمكن القول أنَّ الإشادة بالآثار العمرانية التي وردت في القرآن الكريم هي ذكرٌ مقدس حاله حال بقية ما ذُكر في القرآن من آيات كونها قد حملت الاهتمام من الله تعالى بها ، وكانت نتيجة بقائها هو لغاية يعلمها ويحاول أن يجعلنا محل دراية وتفكر بهكذا آثار عمرانية ، للوصول إلى معرفة وبيان القدرة والعظمة الإلهية .

قائمة الهوامش :

[1]) سورة الأنعام : آية ٣٨

[2]) سورة النحل : آية ٨٩

[3]) الشيخ الكليني ، الكافي : ١ / ٣٢٩ ؛ محمد بن حسن الصفار ، بصائر الدرجات : ٢١٤

[4]) سورة غافر: آية ٢١

[5]) سورة الروم ٩

[6]) سورة غافر : آية ٨٢

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٣ (ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨

[٧]) يشير الشيخ ناصر مكارم الشيرازي إلى تفسير هذه الآية بأنَّ هؤلاء القوم وغيرهم من الأقوام لا بُدّ من الرجوع والتّفكر بآيات الله تعالى خصوصاً ما كانت عليه تلك الأمم من القوة والمال والآثار العظيمة التي خلّفوها ، وعلى الرغم من ذلك إلا أنّهم لم يستطيعوا مواجهة العذاب الإلهي بل أنَّ قواهم وقدراتهم أُبِيدَتْ خلال لحظات بقدرة الله تعالى ومنْ ثَمَّ لا بُدَّ أنْ يتعظ الإنسان بتلك الأقوام وما حل بهم من العذاب . الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٥ / ٣٣٧ .

[٨]) سورة غافر : آية ٢١

٩) النسفي ، تفسير النسفي : ٣ / ٣٤٧ ؛ البيضاوي ، تفسير البيضاوي : ٤ / ٤٢٤

[١٠]) ابن كثير ، تفسير ابن كثير : ٣ / ٢٣٨

١١) الحسن الصيقل : هو الحسن بن زياد صاحب الإمام الصادق عليه السلام ، روى عنه العديد من المرويات الفقهية والعقائدية . ينظر السيد الخوئي ، معجم رجال الحديث : ٥ / ٣٥٨ .

١٢) البرقي ، المحاسن : ١ / ٢٦ ؛ حسين بن سعيد الكوفي ، الزهد : ١٥

[١٣]) نهج البلاغة ، خطب الإمام علي عليه السلام ص ٣٨ – ٣٩

[١٤]) سورة الحج : آية ٤٦

١٥) الشيخ الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن : ٧ / ٣٢٦

١٦) نهج البلاغة ، خطب الإمام علي : ٣ / ٤١

[١٧]) د. حميد سراج جابر ، فلسفة التاريخ في فكر الإمام علي – دراسة في نهج البلاغة : ٤٧

١٨) سورة الروم : آية ٩

١٩) ورد في تفسير هذه الآية أنَّ قوم النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا قد خالفوه وطغوا في الأرض ، فهم كانوا يتصورون أنهم في حال أفضل من غيرهم وقادرين على إخضاع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لرغباتهم وما يريدونه من العلو والإفساد في الأرض ، إلا أن الله تعالى خاطبهم بهذه الآية المباركة ليوضح لهم أنّهم ليسوا بأفضل من الأمم السابقة التي كانت أشد منهم قوة وأعظم آثاراً في الأرض لما كان لهم من الأبنية العظيمة والقصور العالية المشيدة ، فضلاً عن ذلك أنهم عمّروا الأرض واحيوها بالغرس والزراعة وهذا الأمر لا يمكن قياسه بمشركي مكة وقوم قريش لمكانتهم وقدرتهم البسيطة قياساً بتلك الأمم ، فضلا عن ذلك أنَّ الله تعالى وضّح لهم أنَّ الإنسان مهما بلغ من القوة والقدرة لم تكن قدرته وقوته كقدرته جل وعلا فهو الذي أهلك كل من خالفه وعصاه ، ومن ثَمَّ جاءت هذه الآية توبيخاً لهم من جهة وحثهم للسير في الأرض من جهة أخرى للتفكر بما لاقاه أقوام الأمم السابقة من الهلاك والدمار على الرغم من كل تلك القوة والعظمة التي كانوا بها والتي لا تقاس بقوة مشركي مكة وقدرتهم المتواضعة . للمزيد ينظر الشيخ الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ١٠١ ؛ الشيخ الطبرسي ، تفسير مجمع البيان : ٨ / ٤٦٠ ؛ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٤ / ١١٧ – ١١٨ .

٢٠) سورة فاطر : آية ٤٤ ؛ سورة غافر آية : ٢١ ؛ سورة غافر آية : ٨٢ ؛ سورة محمد آية : ١٠ .

٢١) سورة فاطر : آية ٤٤

٢٢ سورة العنكبوت : آية ٢٢

[٢٣]) سورة غافر ٢١

٢٤) سورة الروم : آية ٢١

٢٥) سورة الحشر: آية ٢١

العدد ٣(ب) – المجلد ٤٣ – السنة ٢٠١٨
مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية

٢٦) كثيرة هي الآيات التي تدلل على كيفية التفكر بما أنزله الله تعالى وما خلقه في هذا الكون لا يمكن حصرها في هذا البحث وذكرنا مثالين فقط للتوضيح فقط .

٢٧) المتوسمون أي المتفرسون والمتفرس هو المثبت في نظره حتى يعرف حقيقة سمة الشيء ، وتوسم فيه الخير أي عرف سمة ذلك فيه . ينظر ميرزا حسين النوري الطبرسي ، نفس الرحمن في فضائل سلمان : ٣٦٧ . وقد رُوِيَ حديث عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معنى المتوسمين الوارد في قوله تعالى في أعلاه " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله في قوله إنَّ في ذلك لآيات للمتوسمين " ينظر الصفار ، بصائر الدرجات : ٣٧٥ ؛ الشيخ الكليني ، الكافي : ١ / ٢١٨ .

٢٨) سورة الحجر : آية ٧٥

٢٩) سورة الحجر : آية ٧٧

٣٠) سورة النحل : آية ١١

٣١) سورة العنكبوت : آية ٤٤

٣٢) سورة الشعراء : آية ٧ – ٨

٣٣) سورة الأعراف : آية ١٨٥

٣٤) سورة الأنعام : آية ٥٠

٣٥) سورة الزمر آية ٩

٣٦) ابي حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط : ٤ / ٨٧ .

٣٧) سورة آل عمران : آية ١٩

٣٨) سورة آل عمران: آية ٨٥

٣٩) سورة آل عمران : آية ١٣٧

٤٠) الطبري ، جامع البيان في تفسير آي القرآن : ٤ / ١٣٣

٤١) الشيخ الكليني ، الكافي : ٨ / ٢٤٩ ؛ الفيض الكاشاني ، التفسير الآصفي : ٢ / ٩٦٢

٤٢) الفيض الكاشاني ، التفسير الآصفي : ١ / ١٧٣

٤٣) سورة الأنعام : آية ١١

٤٤) القمي ، تفسير القمي : ١ / ١٩٤ .

٤٥) سورة الروم : آية ٤٢ .

٤٦) سورة الأنعام : آية ١٠٦

٤٧) هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تدلل على أن المشركين كانوا في عصر النبي محمد ص وبكثرة ، إلا أنه لا يمكن أن نحصرها في هذا البحث لكثرتها ، وأقتصرنا على ذكر هذه الآية للتوضيح فقط .

٤٨) سورة النساء : آية ٨٢

٤٩) سورة النحل : آية ٨١

٥٠) إنَّ الملابس بذاتها وكما هو واضح بصناعتها من الصوف والكتان وغيرها يُفتَرض أنْ تقي الإنسان البرد وليس من الحر ، ولكن يبدو أنَّ استعمالها للحر أهم من استعمالها للبرد حسب المناخ الذي يتواجد عندهم .

٥١) الشيخ الطبرسي ، تفسير جوامع الجامع : ٢ / ٣٤٢ ؛

٥٢) سورة الشعراء : آية ١٤٩

٥٣) نزلت هذه الآية بحق قوم نبي الله صالح وهم قوم ثمود الذين طغوا وافسدوا في الأرض وخالفوا تعاليم الشريعة التي جاء بها نبي الله صالح .

[٥٤]) الفراهيدي ، العين : ٤ / ٤٦ .

٥٥) يمكن أن تكون فارهين من فره : فره الشيء يفره فراهة فهو فاره بين الفراهة والفراهية . ينظر الفراهيدي ، العين : ٤ / ٤٦ .

[٥٦]) سورة الشعراء : آية ١٤٦ – ١٤٨

[٥٧]) آية ٧٤

[٥٨]) سورة الحجر : آية ٨٢ ؛ سورة الأعراف : آية ٧٤ ؛ سورة الشعراء : آية ١٤٩ .

٥٩) سورة الصافات : آية ٩٥ .

٦٠) هذه الآية نزلت بحق قوم نبي الله إبراهيم عليه السلام وأنهم كانوا مخالفين لما جاء به عليه السلام خصوصاً في عبادتهم للأصنام التي ينحتونها .

٦١) الشيخ الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن : ٨ / ٥١٣ العلامة المجلسي ، بحار الأنوار : ١٢ / ٢٧

٦٢) سورة الحجر : آية ٨٢

٦٣) نزلت هذه الآية بحق أصحاب الحجر قال تعالى: " وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ{الحجر/٨٠} " ، وهي مدينة – في قول ابن شهاب ، وسموا أصحاب الحجر ، لأنّهم كانوا سكانها ، كما تقول : أصحاب الصحراء . " كذبوا " أيضاً الرسل الذين بعثهم الله إليهم ، وجحدوا نبوتهم : وقال قتادة : هم أصحاب الوادي ، وهو من الحجر الذي هو الحظر . وأخبر الله تعالى انه اتاهم الدلالات والمعجزات الدالة على توحيده وصدق أنبيائه ، فكانوا يعرضون عنها ولا يستدلون بها ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ينقرون نقراً يأمنون فيها من الخراب . وقيل آمنين من سقوطها عليهم . وقيل كانوا آمنين من عذاب الله وقيل : من الموت . ينظر الشيخ الطوسي ، البيان في تفسير القرآن : ٦ / ٣٥١ .

٦٤) سورة الذاريات : آية ٥٦

٦٥) سورة الفجر : آية ٧ – ٨

٦٦) ابو وائل : مات سنة (٨٢ هـ) قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وقال العجلي : يكنى أبا وائل من أصحاب عبد الله بصري رجل صالح ، وقال ابن معين : ثقة لا يسأل عن مثله . وقال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ثقة ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم . ينظر محمد حياة الأنصاري ، معجم الرجال والحديث : ١ / ٩٣ .

٦٧) عبد الله بن قلابة :

٦٨) الشيخ الصدوق ، كمال الدين وتمام النعمة : ٥٥٢ – ٥٥٣ ؛ الراوندي ، قصص الأنبياء : ٩٧ – ٩٨ .

أولاً :- المصادر الأولية

- **القرآن الكريم**
- **الأندلسي ، ابن حيان (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م)**

١. تفسير البحر المحيط ، ط١ ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق د.زكريا عبد المجيد النوقي د.أحمد النجولي الجمل ، لبنان/ بيروت – دار الكتب العلمية(١٤٢٢ – ٢٠٠١م) .

- **البرقي ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد (ت ٢٧٤ هـ /٨٨٧ م) .**

٢. المحاسن ، تحقيق ، السيد جلال الدين الحسيني (المحدث) ، الناشر : دار الكتب الإسلامية طهران ١٣٧٠ – ١٣٣٠ ش .

- **البيضاوي ، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي (ت ٦٩١ هـ / ١٢٩١ م)**

٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي ، دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي بيروت بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٨ – ١٩٩٨ م .

- **الراوندي ، قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م)**

٤. قصص الأنبياء ، ط ١ ، تحقيق الميرزا غلامرضا عرفانيان اليزدي الخراساني ، الناشر ، ايران – قم ، مطبعة الهادي (١٤١٨ م) .

- **الصدوق ، الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (ت ٣٨١ هـ – ٩٩١ م) .**

٥. كمال الدين وتمام النعمة ، تحقيق ، علي أكبر غفاري ، الناشر : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم المشرفة – ١٩٨٥ م .

- **الصفار ، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م) .**

٦. بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد (عليهم السلام) ، تحقيق ، الحاج ميرزا حسن كوجه باغي ، الناشر منشورات الأعلمي ، طهران ، المطبعة : مطبعة الأحمدي – طهران ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣.

- **الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) .**

٧. تفسير مجمع البيان ، تحقيق ، لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين ، ط ١ ، الناشر ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

٨. تفسير جوامع الجامع ، ط ١ ، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، التاريخ : ١٤١٨ هـ .

- **الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) .**

٩. جامع البيان جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار (دار الفكر ، بيروت– لبنان، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

- **الطوسي ، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠ هـ /١٠٦٧ م) .**

١٠. التبيان في تفسير القرآن ، تحقيق ، أحمد حبيب قصر العاملي ، ط ١ ، الناشر : مكتب الإعلام الإسلامي ، المطبعة : مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي – رمضان المبارك – ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .

- **الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام)(ت ٤٠ هـ / ٦٥٦ م)**

١١. نهج البلاغة ، جمعه الشريف الرضي ، ط ٢ بيروت – لبنان ، ١٤٣٣ / ٢٠١٢

- **الفراهيدي ، الخليل أبي عبد الرحمن بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ / ٧٩١ م)**

١٢. العين ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي و الدكتور إبراهيم السامرائي ، الناشر : مؤسسة دار الهجرة – إيران – قم ، سنة الطبع (١٤٠٩ هـ) .

- **الفيض الكاشاني ، المولى محمد محسن الفيض الكاشاني (١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م)**

١٣. الآصفي في تفسير القرآن التحقيق : مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية المحققان : محمد حسين درايتي ، ومحمد رضا نعمتي الناشر : مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي المطبعة ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي الطبعة : الأولى (١٤١٨ ق ، ١٣٧٦ ش) .

- **القمي ، أبو الحسن علي بن إبراهيم (ت ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م) .**

١٤. تفسير القمي ، تصحيح وتعليق وتقديم السيد طيب الموسوي الجزائري ، طبع : مطبعة النجف الأشرف ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- **ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٤٧ هـ /١٣٤٦ م) .**

١٥. تفسير ابن كثير، تقديم يوسف عبد الرحمن المرعشلي (دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) .

- **الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (ت ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م) .**

١٦. الكافي ، تصحيح وتعليق ، علي أكبر غفاري ، الناشر : دار الكتب الإسلامية المطبعة : حيدري – طهران ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٧ م .

- **الكوفي ، أبو محمد حسين بن سعيد (ت القرن الثالث الهجري)**

١٧. الزهد ، تحقيق وإخراج وتنظيم ، ميرزا غلام رضا عرفانيان ، المطبعة العلمية ، قم – إيران (١٣٩٩ هـ)

- **المجلسي ، العلامة محمد باقر (ت ١١١١ هـ – ١٦٩٩ م) .**

١٨. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار(عليهم السلام) ط ٢ ، الناشر : مؤسسة الوفاء ، بيروت – لبنان ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م .

- **النسفي ، العلامة أبو البركات عبد الله ابن أحمد بن محمود النسفي (ت ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م)**

١٩. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، (د : ت – د : م)

المصادر الثانوية :

- **الأنصاري ، أبو أسد الله محمد حياة بن الحافظ محمد عبد الله**

٢٠. معجم الرجال والحديث (د : م / د : م) .

- **جابر د. حميد سراج الأسدي**

٢١. فلسفة التاريخ في فكر الإمام علي – دراسة في نهج البلاغة – ط١ ، كربلاء القدسة ، العتبة الحسينية القدسة ، ١٤٣٨ هـ = ٢٠١٧ م .

- **الخوئي ، أبو القاسم الموسوي (١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م) .**

٢٢. معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة ، ط ٥ ، (د : م) ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

- **الشيرازي ، ناصر مكارم**

٢٣. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، تحقيق ، الشيخ مهدي الأنصاري ، الناشر : قسم الترجمة والنشر لمدرسة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ، (د : ت) .